الفصل الثانى

إخفاق عيسى

(ا) تأكد هذا الإخفاق – أسبابه : عيسى لا يتحدث إلى الشعب ولا إلى العلماء والقساوسة حديثاً مقنعاً – الرحلة إلى القدس وموت عيسى – هل تنبأ بهذه الميتة ؟

(ب) تشتت الحواريين – كيف أحيا من قواهم الإيمان ببعث عيسى ؟ – المصادر التى نبع منها الإيمان ببعث عيسى – أثر هذا الإيمان فى تكوين التفكير المسيحى الأول ونشأة المسيحية .

(حـ) إعادة تنظيم إيمان الأتباع – فكرة العودة القريبة للمسيح عيسى – ضعف حظ عقيدة الحواريين من النجاح – سبب استمرار هذه العقيدة : نقلها إلى التربة الفكرية اليونانية .

obeikandl.com

(١)

هكذا لا تقدم إلينا النصوص الخبر اليقين فيما يتعلق بتفكير عيسى الخاص بمبادئ رسالته وبصفات شخصيته ، وبمدى دوره الذى لعبه ، إلا أننا لابد أن نقرّ واقعاً واضحاً للعيان ، هو : أنه لم ينجح فى دعوته ، وأن مواطنيه من أهل فلسطين لم يصدقوا بالرسالة التى نسبها إلى نفسه ، ولم يسيروا على نهج الأخلاق التى أراد أن يوحى بها إليهم . . لقد راقبوا مروره بينهم خلال الفترة الوجيزة التى أتيح له أن يظهر فيها[1] ، راقبوه فى شىء من الفضول أو من اللامبالاة ، ولكنهم لم يتبعوه . ولعله – وهذا أكثر ما يمكن أن يقدر له من نصيب فى النجاح – قد جذب إلى دعوته بضع مئات من أهل الجليل السذج ، فالأناجيل عندما تصف لنا جماهير الشعب وهى تقتفى خطاه فى تلهف ، وتنصت إلى أحاديثه فى إعجاب بالغ هذه الأناجيل لا تنسينا ما ترسمه صفحاتها الأخرى – فى صورة لا شك أنها أقرب إلى الحقيقة – من قسوة قلوب اليهود وتعنتهم الشديد . والواقع أن عيسى نفسه قد يئس ، فيما يبدو ، من محاولة إقناعهم . وأسباب إخفاقه واضحة للعيان .

فهو لم يتحدث إلى الشعب باللغة التى كان ينتظرها منه : كان يدعو إلى

---

(١) يجب ألا نعتمد فى حسابنا لحياة عيسى كنبى على التقديرات التى يوحى بها الإنجيل الرابع ، والتى بمقتضاها تكون حياته العامة قد امتدت ثلاث سنوات . إن فترة الدعوة فى حياة عيسى اقتصرت بالتأكيد على بضعة أشهر أوحتى على بضعة أسابيع . والتقديرات الدقيقة غير متوافرة .
(المؤلف)

التأمل فى النفس وحب الغير، وإلى التواضع والإيمان العميق بالله، فى حين كان الناس يترقبون دعوة إلى الصراع المسلح وإعلانا للجهاد الأكبر والأخير قبل الانتصار الخالد. إنه لم يقل لهم: « قوموا ! . . فالمسيح الذى اختاره « يهوه » معكم بل قال: « مهدوا – بالتوبة – ليوم الحساب القريب ». لم يطلب منهم العمل والكفاح، بل رجاهم الصبر، واتخاذ موقف أخلاقى ودينى من شأنه أن يحول هذا الصبر إلى نوع من الفروض الحتمية، فيه ما فيه من القسوة على النفس. كان من أبناء إسرائيل، ولكنه لم يتعصب لقومه، ولم يتخذهم وحدهم فى غالب الأمر موضوعاً لدعوته: فقد كان يستوى فى نظره الجندى الرومانى التقى المؤمن، أو المرأة الكنعانية المخلصة، واليهودى الأصيل الذى يأتى إليه معلناً تصديقه له، بل إن الكافر الذى يتحول قلبه إلى الإيمان كان يفضل بكثير فى نظره من لم يصدق من اليهود.

كان عيسى يتحدث كثيراً عن العدل، وعن السلام، وعن شوق النفس إلى الوصول إلى سماء الأب، كما كان يتحدث عن التوكل والصبر. . . ولم يصرح قط بوجوب الثورة، أو بقرب انتصار شعب الله المختار على سائر الأمم، وفى ذلك كله نجد نحن أصالته وجاذبيته الكبرى، إلا أن حديثه لم يكن ليثير صدى أهل فلسطين المتلهفين إلى يوم الانتصار الموعود.

أما علماء الدين فقد رأوا فيه رجلا جاهلا يتطاول عليهم، ويعتقد فى سذاجته أن الحكمة يمكن أن تحل محل العلم، وأن البصيرة يمكن أن تغنى عن المنطق. وكان يتحدث إليهم فى ثقة وقوة، لأنه كان يشعر بتأييد من الله فى نفسه. ولم يكن ليعجبه منطقهم، ولم يكن توثب عاطفته الدينية الفطرية إلا ليتصادم مع تفكيرهم المتشبث بالتدقيق إلى أقصى الحدود فى الأمور الدينية

فكان من الطبيعى أن تنشأ العداوة بين الطرفين .

وعلينا أن لا ننسى ظروف العصر الذى كتبت فيه الأناجيل وما تعكسه من عدم اهتمام المسيحيين بالشريعة اليهودية ، مما جعلهم ينسبون إلى عيسى ذلك الاحتقار الذى كانوا يشعرون به تجاهها . إلا أننا إذا حللنا النصوص العديدة التى يعارض فيها المسيح علماء فلسطين ، وتلك التى تصف كيف كانوا يحاولون استدراجه بالأسئلة الماكرة ، لا نجد بدًّا من الاعتقاد بأن نزاعاً خفيًّا مستمرًّا كان يسود علاقته بهم . وعلى أى حال فقد كان يحترم الشرع ويبدى تمسكاً به ، ولكنه لم يجعل منه همه الأول ، بل أظهر استعداداً لأن يعطى الهام التقوى المكانة الأولى قبل تعليمات رجال الدين .

أما قساوسة القدس والطبقة الممتازة من اليهود ، فقد كانوا يعدّونه أكثر الفوضويين خطورة وأضرهم بمصالحهم : كان فى نظرهم خطراً عليهم ، لأن دعوته من شأنها أن تثير فى نهاية الأمر ، بين جموع الشعب ، حركة من تلك الحركات العنيفة الحمقاء التى يتشدد الرومان دائماً فى قمعها ، والتى تقلق فتنتها من راحة بال أهل المعبد . وكان خطراً عليهم أيضاً لأنه يحدث الطبقات الدنيا من الناس ، فى غير ما تحفظ بقصص ومقارنات لا يمكن أن يؤدى مغزاها إلا إلى إظهار عيوب طبقة رجال الدين وإضعاف مركزهم .

وأما الشعب فكان شعوره بالتردّد تجاه دعوة « النبى » أقوى من ميله إلى مقاومتها . لقد أذيع أن عيسى أكثر فى ربوع فلسطين من « الإشارات » ، أى المعجزات ، بشفائه المرضى والعجزة ، ولعل الناس بدءوا ينسبون إليه إحياء بعض الموتى – تلك المعجزة التى كانت تعتبر أسهل المعجزات فى ذاك الوقت وفى هاتيك البلاد . وراح أعداؤه ينشرون أن كل تلك الأعمال الخارقة مرجعها

الشيطان . ولكن البسطاء لم يصدقوا ادعاءهم ، وظلوا على حيرتهم ، إذ أن عيسى – وإن لم تثر دعوته حماستهم – ظل محل عطفهم . أما العلماء والقساوسة فقد كرهوه منذ عرفوه ، وكانت غلطة كبرى منه أن وضع نفسه بين أيديهم فيما بعد .

والأسباب التى دعت به إلى الرحيل إلى القدس غير واضحة . والأرجح أن الدافع له لم يكن فقط الاحتفال بعيد الفصح فى المدينة المقدسة .

لقد حرر مؤلفو أناجيلنا نصوصهم فى عصور أصبح فيها « سر » حياة عيسى يتلخص فى فترة واحدة هى فترة موته ، تلك الميتة التى ارتضاها ثمناً لإحياء وتخليص البشرية . وافترض هؤلاء المؤلفون أنه شرح منذ البداية ضرورة تعذيبه وصلبه ، لذلك لم يترددوا فى القول بأن عيسى أتى القدس لإتمام رسالته الإلهية على الصليب الذى ينتظره فيها .

أما المؤرخ فإنه لا يجد مناصاً من الوقوف أمام الغموض والإبهام اللذين يلحظهما فى التسلسل الواقعى لنفسية عيسى ولأغراضه الحقيقية من هذه الرحلة . هل أحس إحساسا مباشراً بإخفاقه ؟ إن الوقائع الصريحة تدعونا إلى الإيمان بذلك . والحق يقال إنه ليس من السهل علينا تصور إمكانية نجاحه فى ما كان يسعى إليه : فدعوته الأخلاقية لم تكن لتحمل مغزاها وتؤتى ثمارها إلا فى حالة تدعيمها ببعض الإشارات المنبئة بقرب ذلك اليوم العظيم الذى يعد به . ولم تكن هذه الدعوة لتجد سندها الطبيعى إلا فى تحقّق كلمته .

ولكن الإشارات لم تظهر ، ولم تتحقق كلمة النبى . فاضطر المؤمنون به إلى القول بأن الأتباع الأول لم يفهموا حديثه كل الفهم ، وأنه هو قد أبهم لهم الحديث وجعله رموزاً . ولو اعتمدنا على وصف دخوله مدينة القدس دخول

المتصر بين هتافات الجماهير لظننا أنه كان يوئمن إيماناً راسخاً بوصوله إلى الحق وبدعوته إليه ، وأنه أيقن أن هذا الحق لن ينجلى عنه النقاب إلا فى القدس حيث يقوم اليوم الموعود بجلاله ورهبته . غير أننا ، من جانبنا ، نشك كثيراً فى صحة هذا الوصف .

ومهما يكن الأمر من أغراض أو آمال عيسى ، فقد أخطأه التوفيق فى الانتقال إلى هذا المجتمع الذى لم يكن بمجتمعه والذى كان يسيطر عليه أعداؤه الطبيعيون .

هل قام فى المدينة ببعض الأعمال المثيرة ، مثل تحدى التجار الذين يبيعون ويشترون على أعتاب المعبد ؟ قد يكون ذلك . على أى حال فإننا نعتقد أن الحاكم الرومانى كان يعرف « الملهمين » من اليهود من قبل ، ويعرف أيضاً أنه يجب عليه الاحتياط منهم . لذلك لم يكن من العسير على العلماء والقساوسة أن يقنعوه بخطر هذا الرجل من أهل الجليل الذى لا أصل له ، وبضرورة وضع حد للفوضى التى يثيرها ، حفاظاً على النظام . فأمر بيلاطس بالقبض على عيسى ، وحاكمه ، وصلبه [١] ، ولم يتدخل الشعب فى شيء .

والأرجح أن جهود محررى الأناجيل فى سبيل إبراء ذمة الحاكم الرومانى وإلقاء تبعة الجرم كله على كاهل اليهود ، لا ترجع إلى وحى الحقيقة وواقع التاريخ بل إلى الرغبة فى عدم إثارة السلطات الرومانية فى عصر لم يكن

(١) إن المؤلف نفى – فيما قبل – نفياً باتًّا قاطعاً أن يكون المسيح قد ادعى « البنوة » ، واعتبر ذلك من السفه الدينى ، وهنا يتحدث عن عقيدة الصلب فلا يحيطها بما يحيطها به المسيحيون من مغزى ، وإنما كانت لأن الحاكم رأى أن يحتاط للحكم ويخلص الإقليم من فوضى ، فصلبه للأمن ، ولم يتحرك أحد من أتباعه لإنقاذه أو حتى للشفاعة من أجله ، على أن النصوص الصريحة لا تؤيد المؤلف . وإذا كان بعض المؤرخين يشك فى وجود المسيح – مجرد الوجود – فهل مع ذلك يمكن لإنسان أن يؤكد الصلب ؟

المسيحيون يجدون ملجأ سواها أمام كراهية أهل المعابد اليهودية .

ولم يكن عيسى قد توقع ما حدث له فى القدس . وارتباك أتباعه وهروبهم هو الدليل الواضح على ذلك . ولقد بدا وكأن حكم بيلاطس العنيف كان الضربة القاضية على أحلامه ، والقاصمة لدعوته ، ومن المرجح أن نفسه فى أواخر أيامه قد تملكها القلق فيما يتعلق بالمستقبل والحيرة فيما يتعلق بالحاضر ، ولعلها – ولم لا ؟ قد تملكها أيضاً الشك فى ذاتها ، وأقضتها فكرة الموت الذى اقترب . غير أننا لا نجد من الأدلة ما يسمح لنا بالقول بأنه رأى حينئذ أن صلبه أمر ضرورى لإتمام رسالته ، بل كلها تشير إلى أنه لم يدَّع شيئاً من هذا . والحق يجب أن يقال : ما دامت المعجزة التى بشر بها لم تتحقق ، وما دام « يهوه » لم ينشر ظله على الأرض ، فما عسى أن يفعل سوى أن يلجأ مسرعاً إلى الجليل ، أو أن يحنى رأسه أمام قدره المحتوم ؟ ولعله فكر فى العودة إلى مسقط رأسه . وقد ظن البعض ذلك ، اعتماداً على إنجيل متى الذى يروى أنه ضرب لأتباعه موعداً بالجليل . وعلى أى حال ، فلم تتح له فسحة من الوقت كافية لتحقيق هذه الخطة إن كان قد اختطها .

(ب)

كان من شأن « فضيحة الصليب » – وهذا التعبير يرجع إلى القديس بولس – أن تضع ، فيما يبدو ، حدًّا لمحاولة عيسى . فلقد قام للتبشير بأحداث لم تتحقق ، ثم مات ، وتشتّت أتباعه فى ذعر شديد ، وذهبوا إلى حد التنكر للأمل الذى غرسه الأستاذ فى قلوبهم فندموا على الخطأ الذى وقعوا جميعا فيه ، أو لعنوه .

ويجب علينا أن لا ننسى أنه لم يؤسس شيئاً : لم يأت بدين جديد ، ولا حتى بأى طقس جديد من طقوس العبادة . لم يأت إلا بتصور شخصى فريد للتقوى فى إطار الديانة اليهودية ، تلك الديانة التى لم يزعم قط أنه يبغى التغيير من معتقداتها أو من شرعها وشعائرها . واعتمدت تعاليمه على فكرة حلول مملكة الله التى آمن بها هو كما آمن بها سائر مواطنيه ، إلا أنه فهمها وعبر عنها بطريقته الخاصة ، ويجدر بنا الإشارة إلى أن هذه الطريقة الخاصة نفسها قد لا تكون أصيلة لديه ، بل لعله أخذها عن غيره من سابقيه . أما أن تنسب إليه إرادة تأسيس كنيسة . . كنيسة تكون كنيسته هو . . كنيسة تختص بالعبادات والطقوس التى يعينها لها والتى يظهر فيها رضاه عنها . . كنيسة يمهد لها فتح الأرض جميعا – فهذا قول لا يقره واقع الأحداث ، ولا صريح التسلسل التاريخى .

ولن نتعدى الحق إن أضفنا : أن كل ذلك لا يمكن اعتباره إلا تحريفاً[1] ، لفكرته وأنه لم يكن ليرضى عنه قط لو نمى إلى علمه منه شىء .

ولكن ماذا كان يبقى منه إذن . إن نحن استثنينا بعض الحكم الأخلاقية ، وهى ولا شك مفيدة ، ولكنها أقل أصالة مما توصف به عادة ، ولم تتعرض لذكرى فضائله الرقيقة ولسحر شخصيته ؟ . . ماذا كان يبقى لنا من عيسى ؟

إن المنطق يجيب عن هذا التساؤل إجابة صريحة : لا شىء .

إلا أن تتابع الأحداث بعد ذلك بدا وكأنه لا يساير المنطق .

فقد انتصر الإيمان الوثيق لدى أصحاب المسيح على الموت نفسه . وهنا نصل إلى أكثر مشاكل التاريخ المسيحى غموضاً وإبهاماً : فقد تلاقى هؤلاء

---

(١) والمؤلف العالم المسيحى صاحب المركز العلمى الممتاز لا يعتبر المسيحية الحالية إلا تحريفا لفكرة السيد المسيح .

الحواريون بالجليل ، بين أحضان ذلك الإقليم الذى يعرفونه والذى عاشوا فيه مع أستاذهم ، وظنوا أنهم رأوه هناك ثم أيقنوا أنه بعث من بين الأموات .

تلك هى الوقائع . أما تفاصيلها ، فليس لدينا بها علم . ولم يكن للأساطير بدّ من أن تحاول تفسير الوقائع ، فصنعت منها نسيجاً بالغ التعقيد والغموض ، اختلط فيه العجب العجاب من الأحداث الخيالية المستحيلة ، وتعذر بعد ذلك استخلاص الحقيقة منه لتضارب النصوص وتباين رواياتها . وإن روايات الإنجيل التى وصلت إلينا ، والتى تتعلق ببعث عيسى ، لتبدو للمؤرخ الناقد نوعاً من الإنشاءات التى لا تنسجم عناصرها ، قد بنيت على ذكريات مبهمة وتفاصيل متعارضة ، ثم على « حكايات » قديمة من تلك التى تعودها العالم الشرقى . ولكن .. ما أساس هذه المسألة – إذ لا بد وأن يكون هناك شىء بالذات قد أثار الحديث عنها ؟

أساسها فيما يبدو ، على أرجح الاحتمالات : رؤيا رآها بطرس ، تلتها رؤى جماعية .

وتلك ظاهرة لها أمثلة أخرى فى تاريخ الأديان .

ويجب ألا ننسى أن أصحاب عيسى ، وإن رحلوا من القدس فى رعب وحيرة ، بعد أن خاب ما كانوا يتوقعونه ، وبعد أن نزلت بهم الضربة العنيفة المفاجئة القاصمة لآمالهم ، فلعلهم لم يستسلموا لليأس كل الاستسلام ، وكان إيمانهم بصدق عيسى مع ذلك أقوى من ترددهم . فلما انتهت الفترة الأولى من الاضطراب ورجعوا إلى تلك البيئة التى عاشوا فيها معه واستمعوا إليه ، عاد تأثير حديثه قويًّا ، بالغ القوة ، وخاصة بالنسبة إلى بطرس . كانت دعوة عيسى لديهم مرتبطة بشخص عيسى نفسه ، فإن هم أقروا باختفائه إلى الأبد ، كان

ذلك إقراراً بالتخلى عن كل أمل لهم فى تحقق كلمته . وتبلور إيمانهم وركز على فكرة واحدة ثابتة هى قولهم لأنفسهم : « لا يمكن أن يكون عيسى قد تنكر لنا ، ولا يمكن أن يكون موته أمراً نهائيًا » . وكانت النتيجة المحتومة لمثل هذا التبلور والتركيز – لدى أمثال هؤلاء السذج المتحمسين فى أملهم وترقبهم – أن يروا الرؤى ويصدقوا بها . وهكذا قدر لبطرس أن يرى عيسى ، ثم رآه من بعده حواريون آخرون فى الصورة نفسها التى وصفها لهم . وسواء أرجع الأمر إلى التهيؤات والأحلام أم إلى تفسير محموم لظواهر حسية معينة ، فالنتيجة واحدة : وهى أن الصيادين من أهل الجليل لم يكونوا ليستطيعوا تحليل ما حدث لهم ، بل استسلموا كل الاستسلام إلى ما ظنوه من وحى الله .

وأدت الرؤى بالحواريين إلى الاقتناع بأن عيسى « حى » أو – على الأقل بأنه حى « بروحه » التى مجدها الله . ولكن الاقتناع بأنه حى يقتضى الاقتناع بأنه لم يعد ميتاً . وإذا لم يكن بين الأموات ، فلا جدال – فى نظر يهودى هذا العصر – فى أنه قد بعث . ولا نقول قد بعث « بجسده الذى ووري فى الأرض » ولكن نقول أنه بعث « بجسد ما » . وإذا افترضنا أن أصحاب عيسى لم يؤمنوا بادئ ذى بدء إلا بالبعث « الروحى » فلا نشك فى أنهم لم يستطيعوا الحفاظ على هذا المفهوم فترة طويلة ، حيث إن التفكير الشعبى لا يمكنه أن يتمثل البعث إلا فى صورة العودة الكاملة للحياة [1] ، فضلا عن أن نصوصاً مختلفة من الكتب التى أرادوا أن يتقدموا بها تبريراً لفكرة بعث عيسى فرضت عليهم الإيمان

---

(١) هكذا مثلا نرى بعض الناس فى أثناء حياة عيسى ، يؤمنون بأنه ليس سوى يوحنا المعمدان بعث إلى الحياة من جديد (أنظر : إنجيل مرقس ، ٦ / ١٤) .

(المؤلف)

بأنه خرج من قبره بعد ثلاثة أيام من مواراته الأرض ، أو فى اليوم الثالث . وعلى أساس عقيدة أصحاب عيسى هذه رسخت أسطورة البعث ، ثم نمت وتطورت على الأخص فى ربوع اليونان .

ولن نزيد هذه المسألة الثانوية تفصيلا الآن ، مكتفين بالإشارة إلى أن دعامة عقيدة البعث هى تصريح الحواريين الذين قالوا : « لقد رأيناه ، لقد بعثه الله » . ولكن هذا التصريح كان يفترض نتيجة وخاتمة :

لماذا أخرج الله عيسى من عالم الأموات . . إن لم يكن قد خصه بدور أساسى فى حادث جلل يوشك أن يكون ؟ . .

أما الحادث الجلل فلا شك فى أنه هو حلول مملكة الله التى وعد بها عيسى .

وأما الدور الذى اختص به الأستاذ فلا جدال فى أنه هو دور المسيح المرتقب .

وهناك نصان من نصوص مجموعة « أعمال الرسل » يسمحان لنا حتى يومنا هذا بأن ننفذ إلى الشريان النابض لتفكير الحواريين فى هذا الصدد (٢/٣٢ ، ٣٦) :

يقول النص الأول : « هذا المسمى بعيسى ، لقد بعثه الله ، وإنا جميعاً على ذلك شهداء » . ويأتى الثانى بمغزى الحديث فيعلن : « ليعلم سائر بيت إسرائيل علم اليقين أن الله قد جعل من هذا المسمى بعيسى الذى اضطهدتموه سيداً ومسيحاً » ولا نجرؤ هنا بطبيعة الحال ، على التصريح بأن هذا التعبير المنسوب إلى القديس بطرس تعبير أصيل يرجع فعلا إلى من نسب إليه ، بل إننا نؤمن بعكس ذلك ، حيث إن استخدام كلمة سيد (كيريوس) توحى بأن الكاتب للنص كان ذا أصل يونانى أو ثقافة يونانية – أى أن التعبير ينتمى إلى

النصوص التى يتضح فيها أثر المجتمع اليونانى على المسيحية – غير أن تقابل النصين بما فيهما من تأكيد ، يتجاوب مع واقع نفسانى محقق .

ولو لم يكن إيمان الحواريين ببعث أستاذهم ، « لما كانت المسيحية » ، وعلى أساس من هذه الفكرة قيل (انظر كتب ولهاوسن) : إن عيسى « لولا موته » لما دخل قط فى سجل التاريخ . ولكن هل يمكننا الدفاع عن النظرية العكسية ، والقول بأن العقيدة الأساسية للمسيحية تعتمد على هذا البعث ؟

إن لفكرة البعث من وجهة النظر العقائدية أهمية قصوى ، ولا يمكن أن تضفى عليها المبالغة شيئاً جديداً إلا بصعوبة ، بل إنه ليبدو لنا من صراح الحق أن نتخذ عنواناً ثانويًا لكل رسالة فى العقيدة المسيحية الأصيلة من تلك الكلمة التى قالها القديس بولس فى أول رسالة له إلى أهل كورينثيا (١٥ ، ١٧) : « إن لم يكن المسيح قد بعث ، فإيماننا لا سبيل له » .

ومن جانب آخر فإن المفكر إن هو حلل ظهور عقيدة المسيحية وانتشارها من وجهة النظر التاريخية البحتة لن تبدو له فكرة بعث عيسى أقل شأناً وخطورة ، فبسببها أصبح الإيمان بـ « السيد عيسى » أساس دين جديد لم يلبث أن انفصل عن اليهودية واتخذ فى نظر الناس صورة الطريق الإلهى نحو النجاة . وبسببها أيضاً تسربت آثار الأسطورة الشرقية القديمة التى تدور حول فكرة إله يموت ثم يبعث ، ليسير بأتباعه نحو حياة الخلود ، تسربت إلى ضمير المجتمعات المسيحية – أو على الأقل منها تلك المتأثرة بالفكر اليونانى – فلم يلبث عيسى أن تحول بها من مسيح يهودى وشخصية محلية لا أثر فيها للتراث اليونانى ولا يفهمها أهل اليونان إلى « عيسى المسيح ، السيد والمنقذ ، ابن الله وخليفته على

الأرض ، الذى يهتف باسمه سائر المؤمنين ، وتنحنى له الخليقة كلها إكباراً وإجلالا » — على حد تعبير القديس بولس .

وما دام الأتباع قد قبلوا مبدأ البعث فى إيمانهم ، فلم يكن لهم بد من أن يبادروا بإعلاء شأن هذا الإيمان وبإعادة تنظيمه .

(جـ)

ونقول هنا : « إعادة تنظيم الإيمان » ذلك أنه قد وضح للعيان استحالة استمراره معتمداً على حديث عيسى فحسب . لقد حول موته من مجرى العقيدة حيث فرض هذا الحادث أثره على الصورة المرسومة ليوم القيامة والعالم الآخر .

وعلى ذلك قيل أول الأمر : إن عيسى لم يمت إلا ليبعث . فالبعث هو الدلالة العظمى على التشريف الذى خص به .

ثم انتهى الأمر إلى أن أصبح هذا الموت : السر الأعظم ، والنهاية المحتومة والهدف الأول من حياة عيسى كلها ومن عمله . فقيل : « جاء عيسى الناصرى فى هيئة رجل ألهمه الله ، يكثر من المعجزات ويعمل الخير . وقتله الأشرار . إلا أنه كان هو المسيح المختار . وقد بين الله ذلك إذ بعثه من بين الأموات فى اليوم الثالث . وقريباً سوف يعود فى مجده السماوى ليقيم المملكة التى وعد بها » .

وكانت فكرة قرب حلول مملكة الله الفكرة الأساسية فى دعوة عيسى ، أما دعوة الحواريين فقد تحولت إلى فكرة مركزة هى : أن عيسى هو المسيح الموعود كما تحولت إلى قرب عودته لهذه الدنيا . وهذان هما الموضوعان اللذان توضح لنا مجموعة « أعمال الرسل » أن « الاثنى عشر » من الأصحاب سوف يعودون بهما إلى القدس لشرحها وتنمية أسرارهما .

ولا مناص لنا من الاعتراف بأن هؤلاء الأصحاب كانوا يمتازون بخيال دافق يزيد على الحد ، إذ أن المنطق وواقع الأحوال كانا ينبئان فى صراحة بأنهم لن يلاقوا من النجاح أكثر مما لاقاه أستاذهم ، وبأنهم لابد سائرون إلى مثل ما سار إليه من مصير محتوم .

لم يؤمن اليهود بعيسى فى أثناء حياته ، فكيف يتعلقون به الآن وقد تجمعت الدلائل على أنه غرر حتى بنفسه ، فلم يستطع لها نجاة يوم التعذيب بل مات بائساً والناس تنظر إليه ؟

أيقولون إنه قد بعث ؟ ولكن من هم الشهود على ذلك ؟ إنهم هم الأتباع فحسب ، فما أضعفه من برهان . . .

والحق يقال إن الاثنى عشر لم يلاقوا فى القدس من النجاح سوى القدر اليسير الذى كان يمكن لأى رجل منصف أن يتوقعه : لقد كسبوا تأييد بضع عشرات من الناس مثلما هو الحال بالنسبة إلى كل فرقة دينية جديدة ، وحافظوا على صلات طيبة مع الشعب بفضل شدة تمسكهم بالتقاليد اليهودية ومواظبتهم على زيارة المعبد ولنشر هنا إلى أن تلك دلالة على عدم اهتمام أستاذهم بالانفصال عن عقيدة إسرائيل وعلى عدم رغبته فى ذلك .

ولكنهم أثاروا عداوة الكتبة والكهنة واحتقارهم ، ولاقوا منهم ألواناً من الاضطهاد . إلا أن تواضع أصلهم وخلقهم الجانح للسلم ، ثم أيضاً حسن علاقتهم بجمهور الشعب ، تلك المميزات أنجتهم من القتل ولم تكن هذه الفترة بالنسبة إلى الكثير منهم سوى فترة تأجيل النهاية المحتومة .

وقد انضم إليهم بعض الأتباع من المدن المجاورة للقدس ، بيد أنهم وصلوا سريعا إلى قمة ماكان مقدراً لهم من نجاح بين اليهود الأصلاء ، ولم يكن ذلك

بالشيء الكثير . . بل بدا للعيان ضعف أمرهم ، وأصبح مما لا جدال فيه أن هذه الفرقة سوف تفنى بفناء الجيل الذى نشأت فيه ، وأن ذكرى أتباع عيسى الناصرى سوف يطويها نسيان الزمن كما طوى ذكرى أتباع يوحنا المعمدان وغيره من الأنبياء .

لكن المقدر لم يكن وذلك بظهور عامل جديد فى القضية غيّر وجهتها تغييراً شاملا . . لم تستطع عقيدة أصحاب عيسى أن تشيد صرحها فى مهد اليهودية ، فانتقلت إلى ربوع اليونان .

وسوف نفصل فيما بعد الطريق الذى سلكته . وقد نمت وترعرعت فى مرتعها الجديد . ولابد لنا أن نبين أسباب ذلك : ففى العالم اليونانى يجب أن نبحث عن مدارج التطور الأول للمسيحية .